المستوى: الثالثة لسانيات عامة
السنة الجامعيّة:2022/2021
المقياس: نظرية النظم
الدكتور: علي زيتونة مسعود

النّظم عند عبد القاهر الجرجاني

صاحب نظرية النظم هو أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد من علماء القرن الخامس هجري المعروف بالجرجاني . فارسي الأصل ،ولد بجرجان بشمال إيران ،ونشأ فيها ونهَل مختلفَ العلوم. لزم أستاذه أبا الحسن محمد بن الحسين الفارسي النّحوي (ت421ه) ابن أخت أبي علي الفارسي، عكف على دروسه وأخذ عنه كلّ علمه. اشتغل بالتّدريس في بلدته، توفي فيها سنة 471ه .

أمّا آثاره فيُمكن إرجاعها إلى خمسة اتّجاهات هي: النحو والصرف، البلاغة، تفسير بعض القرآن، العروض، مختارات من الشعر[1]. من هذه الآثار: أسرار البلاغة،دلائل الإعجاز، المغني، الجمل ، العمدة في التصريف، كتاب في العروض، الرّسالة الشافية في الإعجاز، المختار من دواوين المتنبي والبحتري وأبي تمام ، شرح الفاتحة ...

كتاب "دلائل الإعجاز " من أهمّ كتب إعجاز القرآن الكريم، ومن أكثر كتب الجرجاني انتشارا وشهرة، حيث تضمّن نظريّة النّظم المشهورة، ولعلّ الكتابَ اكتسب شهرته منها. والمقصود بالدلائل في عنوان الكتاب "الوسائل المرشدة إلى الإعجاز، والمنهج الذي يعين على الوصول إلى حقائق الإعجاز"[2]. فالقرآن الكريم معجز بالنّظم، والنّظم في نظر الجرجاني وسيلة لفهْم البيان القرآني.

أولا: مفهوم النّظم :

1 ـــــ تعريفه :

أ ـــــ لغـــة: ورد في (لسان العرب)، النّظم التأليف، نظمه ينظمه نظما ونظاما ونظمه فانتظم وتنظم. ونظمت اللؤلؤ أي جمعته في السلك، ومنه نظمت الشعر ونظمته، ونظم الأمر على المثل. وكلّ شيء قرنته بآخر أو ضمَمْتُ بعضه إلى بعض، فقد نظمته. والنظم: ما نظمته من لؤلؤ وخرز وغيرهما، واحدته نظمة. والنظام: ما نظمت فيه الشيء من خيط وغيره. ونظام كل أمر: ملاكه، والجمع أنظمة وأناظيم ونظم. والنظام: الخيط الذي ينظم به اللؤلؤ، وكل خيط ينظم به لؤلؤ أو غيره فهو نظام، وجمْعه نظم. النظام: العقد من الجوهر والخرز ونحوهما وتناظمت الصخور: تلاصقت[3].

ومنه فالنّظم لغة هو التأليف والجمْع والاقتران، وضمّ الشيء إلى الشيء وتنسيقه على نسق واحد، ومنه سُمّي الخيطُ الذي يُنظم به اللّؤلؤُ نظاما، وسُمّيَ العِقدُ من الجوهر والخرز نظامًا.

ب ـــــ اصطلاحا:

عرّفه الشريف الجرجاني (ت816ه)بقوله:

"تأليف الكلمات والجمل مترتّبة المعاني مُتَنَاسِبَة الدّلالات على حسب ما يقتضيه العقل، وقيل: الألفاظ المترتّبة المسوقة المعتبرة دلالاتها على ما يقتضيه العقل"[4]. وعَرّفوه أيضا بِقوْلهم:"ضمّ الكلمات المتخيّرة على الوجْه الذي يقتَضيه المنطق"[5].

أما الجرجاني فقد تَحدّث عن النظم في كتابه (دلائل الإعجاز) في مواضع مختلفة ، وكلّها أرْجَعها إلى توخّي معاني النّحو. يقول: "اعلم أنْ ليس النّظم إلّا أنْ تضع كلامك الوضْع الذي يقتضيه «علم النحو»، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها، وتحفظ الرسوم التي رسمت لك، فلا تخلّ بشيء منها "[6]. ويقول أيضا مؤكّدا: "واعلمْ أنّه وإنْ كانت الصورةُ في الذي أعَدْنا وأبْدأْنا فيه من أنَّه لا معنى للنّظم غيرُ توخِّي معاني النّحوِ فيما بينَ الكَلم"[7].

ثانيا: أسس نظرية النظم :

---

[1]. ينظر: أحمد بدوي ،عبد القاهر الجرجاني وجهوده في البلاغة العربية ، وزارة الثقافة والإرشاد القومي ، المؤسسة المصرية العامة ،ص53.
[2]. محمد إبراهيم شادي ، شرح دلائل الإعجاز للإمام عبد القادر الجرجاني، دار اليقين ، المنصورة، مصر، ط2، 2013، ص10.
[3]. ينظر: لسان العرب، دار صادر – بيروت ، ط3 - 1414 هـ ، 12/ 578.
[4]. الشريف الجرجاني التعريفات ، تحقيق : جماعة من العلماء، دار الكتب العلمية بيروت ، لبنان، ط1، 1403هـ ، 1983 م، ص242.
[5].صالح بالعيد ، نظرية النظم، دار هومة، بوزريعة، الجزائر، 2004،ص92 .
[6]. دلائل الإعجاز في علم المعاني ، تحقيق: عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1 ،1422هـ - 2001 م ص: 60.
[7]. دلائل الإعجاز ،ص239 .

تقوم نظريّة النّظم للجرجاني التي ظهرت معالمها في كتابه "دلائل الإعجاز في علم المعاني" ، على أهمّ الأسس الآتية:

1ـــ نظم الكلم:

يرى جعفر دك الباب بأنّ نظم الكلم هو ترتيب الكلمات وتأليف الكلام[1]. هذا التأليف لا يكون اعتباطا، إنما حسب ما يتطلّبه علم النّحو، لذلك يعرّفه الجرجاني بقوله:"النّظم هو توخّي معاني النّحو في معاني الكلم"[2]. ويبيّن أنّه ليس المقصود بالنّظم أنْ تتوالى الألفاظ عند نطقها، يقول:"عرفت أن ليس الغرض بنظم الكلم، أن توالت ألفاظها في النطق، بل أنْ تناسقت دلالاتها وتلاقت معانيها، على الوجه الذي اقتضاه العقل"[3]. ولِيُوضّح الفكرة أكثر ، فرّق بينه وبين نظم الحروف في فصل عنوانه: الفرق بين قولنا: «حروف منظومة»، و«كلم منظومة»،حيث يقول: "وذلك أنّ نظم الحروف هو تواليها في النطق، وليس نظمها بمقتضى عن معنى (أي ليس واجبًا لمعنى اقتضاه)، ولا الناظم لها بمقْتَفٍ في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرّى في نظمه لها ما تحرّاه. فلو أنّ واضع اللغة كان قد قال: «ربض» مكان «ضرب»، لما كان في ذلك ما يؤدّي إلى فساد. وأمّا «نظم الكلم» فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي في نظمها آثار المعاني، وترتّبها على حسب ترتّب المعاني في النفس. فهو إذن نظم يعتبر فيه حال المنظوم بعضه مع بعض، وليس هو «النّظم» الذي معناه ضمّ الشيء إلى الشيء كيف جاء واتّفق"[4].

2 ـــ توخّي معاني النحو:

" معاني النحو هي العلاقات بين الكلمات، وهي التي تدل على مواقع الكلمات مهما كانت مقدّمة أو مؤخرة ، مذكورة أو محذوفة كالمبتدأ والخبر والفاعل والمفعول والحال والظرف..."[5]. يقول الجرجاني: "اعلم أن ليس النّظم إلّا أنْ تضَع كلامك الوضْع الذي يقتضيه «علم النحو»، وتعمل على قوانينه وأصوله، وتعرف مناهجه التي نهجت فلا تزيغ عنها"[6]. و"توخّي معاني النّحو يعني النّظم على منوال كلام العرب في تعلّقهم للكلام"[7]بتوخّي تلك المعاني الدّالة على المعقوليّة التي لا تخالف المنطق العقلي ولا اللّغوي. والقواعد النّحويّة التي هي أوضاع اللغة يخضع لها المعنى المستفاد[8]. وفكرة النّظم وتوخّي معاني النّحو هي لبّ كتابه دلائل الإعجاز[9].

3 ـــ ترتيب الكلمات في النّطق وفق ترتيب معانيها في النّفس:

الجانب النّفسي في المعاني عنصر أساسي في عمليّة النّظم، حيث أنّ مِن مراحل إنتاج الكلام "ترتيب المعاني في النّفس، ثم النّطق بالألفاظ على حذوها"[10]. يقول الجرجاني: " إنّ الألفاظ؛ إذ كانت أوعية للمعاني، فإنّها لا محالة تتبع المعاني في مواقعها، فإذا وجب لمعنى أنْ يكون أوّلا في النّفس، وجب للّفظ الدالّ عليه أنْ يكون مثله أوّلا في النطق"[11]. تشرح سناء حميد البياتي (معاني النحو) قائلةً: " المعاني الذّهنيّة التي تتولّد في فكر المتكلّم عند نظم الجمل، تلك المعاني التي تنشأ من تحديد العلاقات بين الأشياء المعبّر عنها بالكلم، فتربطها ببعضها، كما يربط السلك الشّفّاف حبات العقد؛ لذلك يصبح الكلام ضربا من الهذيان في حالة فُقْدانها"[12]. فالجانب الذّهني هو الذي يحدّد العلاقات بين الكلم ويربط بينها [13]، كما أنّ الجانب العقلي هو العمدة في النّظم[14].

4 ـــ التعلّق النحوي:

التّعلّق النّحوي ركن من أركان النظريّة، لأنّ على أساسه يتمّ النّظم، يقول محمود نحلة:" ولقدْ قادته فكرة ترتيب الألفاظ حسب ترتيب المعاني في النفس إلى فكرة أخرى تعدّ فيما نرى الركن الثاني من أركان نظريته، وهي فكرة التّعلّق النّحوي"[15]. والتّعلّق هو تلك العلاقة التي تربط مفردات الجملة بعضها ببعض كعلاقة الفعل

---

[1]. ينظر: جعفر دك الباب، الموجز في شرح دلائل الإعجاز في علم المعاني، مطبعة الجليل، ط 1 ،1980، ص144.

[2]. دلائل الإعجاز ، ص 234 .

[3]. المرجع نفســـــه ،ص 42 .

[4].المرجع نفســـــه ، ص 42 .

[5]. محمد إبراهيم شادي ، شرح دلائل الإعجاز للإمام عبد القادر الجرجاني، دار اليقين ، المنصورة ، مصر، ط2، 2013، ص26 .

[6]. الجرجاني ، دلائل الإعجاز في علم المعاني، 60 .

[7]. صالح بالعيد ، نظرية النظم ، ص 134.

[8]. ينظر: صالح بالعيد ، نظرية النظم ، ص 134.

[9]. ينظر: محمد إبراهيم شادي ، شرح دلائل الإعجاز للإمام عبد القادر الجرجاني، ص26.

[10]. دلائل الإعجاز ، ص43.

[11]. المرجع نفســـــه ، ص: 44.

[12]. سناء حميد البياتي، قواعد النحو العربي في ضوء نظرية النظم،دار وائل، عمان ، الأردن ، ط2003،1، ص15.

[13]. ينظر: فاطمة الزهراء نهمار، الأسس الجرجانية لنظرية النظم، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة البليدة، كلية الآداب،قسم اللغة العربية ،المجلد السادس، العدد الأوّل، 20ماي 2018، ص386.

[14]. ينظر: صالح بالعيد ، نظرية النظم، ص 139.

[15]. محمود نحلة ،في البلاغة العربية علم المعاني، دار العلوم العربية، بيروت ، لبنان ، ط1، 1990، ص28.

بالفاعل، وبالمفعول به،وعلاقة المبتدأ بالخبر،وعلاقة الصفة بالموصوف... يقول الجرجاني:"معلوم أن ليس النّظم سوى تعليق الكلم بعضها ببعض، وجعل بعضها بسبب (هو كلّ شيء يتوصّل به إلى غيره) من بعض"[1]. ويقول:" أنْ لا نظم في الكلم ولا ترتيب، حتى يعلّق بعضها ببعض، ويبنى بعضها على بعض، وتجعل هذه بسبب من تلك"[2]. فالجرجاني يرى أنّ الكلم ثلاث: اسم وفعل وحرف ، وأنّ التّعلّق لا يعدو ثلاثة أقسام: تعلّق اسم باسم، وتعلّق اسم بفعل، وتعلّق حرف بهما[3]. وقد شرح هذه الأقسام وفصّل فيها، مدعّما ذلك بالشّواهد المختلفة.

5 ـــــ لا قيمة للكلمة مفردةً:

قيمة الكلمة في نظريّة النّظم، تكمُن في وجودها داخل التركيب، وفي مكانها مع أخواتها في الجملة، فليس لها قيمة ذاتيّة، ولا قيمة للكلمة مفردةً . في هذه الفكرة، يقول الجرجاني: "فقدْ اتّضح إذن اتّضاحا لا يَدَع للشّك مجالا، أنّ الألفاظ لا تتفاضل من حيث هي ألفاظ مجرّدة، ولا من حيث هي كَلِم مفردة، وأنّ الفضيلة وخلافها، في ملائمة معنى اللّفظة لمعنى التي تليها "[4]. ويقول أيضا: " الألفاظ المفردة التي هي أوضاع اللغة، لم تُوضع لِتُعرف معانيها في أنفسها، ولكن لأنْ يُضمّ بعضها إلى بعض، فيُعرف فيما بينها فوائد"[5].

ومن أدلّته، أنّ الكلمة تروقُ وتُؤنس في موضع، ثم هي بعينها تثقل على السّامع وتوحش في موضع آخر، ممثّلا بلفظة «الأخدع» في بيتيْ البحتري وأبي تمام ، ولفظة«الشّيء» في بيتيْ الشّاعريْن عمر بن أبي ربيعة والمتنبّي [6]. فلوْ كان حُسن الكلمة ـــــ عنده ـــــ من حيث هي لفظ، وفي ذاتها ، لكانت إمّا أنْ تحسن دائما، أو لا تحسن دائما [7].

وخلاصة قوْلِ مَا سبق أنّ الجرجاني يرى أنّ القرآن الكريم معجز بالنّظم ، وهو وسيلة لفهْم البيان القرآني، ومن ثم فهدفه أنه أراد تبيين مدى إعجاز القرآن الكريم الذي بلغ قمّة الفصاحة والبلاغة. لذلك فقد بنى نظريته على النّظم وقدّمها وشرحها في كتابه "دلائل الإعجاز". ونظريّة النّظم لم تأت من العدم ، بل نتيجة ثقافة الجرجاني الواسعة والمتنوّعة، وبحْث في ما سبقه من دراسات قرآنية وبلاغية ونقديّة وغيرها .

وأساس النّظم هو توخّي معاني النّحو التي هي التّعليق بين الكلم حسب الغرض المقصود ، وربْط العلاقات بين مفردات الجملة بعضها ببعض ، و ترتيبها في النطق حسب ترتيبها في النفس. فالبلاغة ودقّة النّظم كامنة في التركيب وفي معاني النحو التي تنشأ من تعلّق الكلم بعضه ببعض ، فتتكوّن المعاني التي يريد المتكلّم التّعبير عنها ويستطيع السامعُ إدراكها .

---

[1]. دلائل الإعجاز ، ص 7 .
[22]. دلائل الإعجاز ،ص45 .
[3]. ينظر: دلائل الإعجاز ، ص 8 .
[4]. دلائل الإعجاز ، ص 40 .
[5]. دلائل الإعجاز ، ص 353 .
[6]. ينظر: دلائل الإعجاز ،ص 40،41.
[7]. ينظر: دلائل الإعجاز ،ص 41.